

نحو قراءة بينية للخطاب الدينيّ

Towards an Interdisciplinary Reading of Religious Discourse

د. علي عليوة

د. وداد عمري

جامعة محمد الشريف مساعديّة
الجزائر

المعهد العالي للدراسات التطبيقية
جامعة قفصة ، تونس

dr.aliouaali@yahoo.fr

Omri.wided89@gmail.com



نحو قراءة بينية للخطاب الديني

د. و داد عمري - د. علي عليوة

المخلص:

نسعى في هذا المقال إلى البرهنة على التكامل بين الدراسات اللسانية وعلم الاجتماع ودراسة كيفية استفادة الثاني من النتائج التي يتوصل إليها الأول من خلال تسليط الضوء على ظاهرة الأمر في الخطاب الدعوي . وقد حاولنا رفع النقاب عن كيفية اشتغالها وطريقة توظيف المتكلم عناصر السياق من أجل الوصول إلى مبتغاه محوّل اللّغة من وسيلة للتواصل إلى مطيّة يتوسّلها لبسط نفوذه على مخاطبه انطلاقاً من تحليل الصّبغ التي وردت فيها أفعال الأمر ودراسة طبيعة العلاقة التي تجمع طرفي العمليّة التواصليّة .

كلمات مفاتيح: الأمر، اللّسانيّات، علم الاجتماع، مواقع، حقل اجتماعي

Abstract:

In this article, we seek to demonstrate the complementarity between linguistic studies and sociology and to study how the second can benefit from the results of the first by the Da'wa discourse. We have tried to unveil how it works and how the speaker employs the elements of the context in order to reach his aspirations, transforming language from a means of communication into a tool for controlling addresses by analyzing the forms of verbs contained in the command and studying the nature of the relationship between the parties of the communication process.

Keywords: Command, Linguistics, sociology, locations, social field.

1- مقدمة:

بدل الحديث عن الدراسات البيئية وتقاطع العلوم وتداخلها والتكامل المعرفي بينها نظرياً، رأينا أن ننجز عملاً تطبيقياً للبرهنة على أهمية نتائج التكامل بين الدراسات اللسانية وعلم الاجتماع محاولين الخروج من قمع الاختصاص الواحد كاسرين النظرة الاحادية للمسائل الفكرية. وقد يمّنا قبلتنا شطر الخطاب الديني الذي ظلّ لقرون رهين محبسي الدراسات اللغوية الباحثة بين طياته عن الإعجاز أو الدراسات الفقهية التي تسعى إلى استنباط الأحكام والفتاوي منه. شعارنا في ذلك الانفتاح على الواقع وعلى السياق التاريخي المتغير. لذلك رغبتنا عن النصوص النخبوية ذات الطابع الأرثوذكسي التي احتكرها حراس العقيدة وولينا وجوهنا شطر خطبتين للداعية المصري "وجدي غنيم" الأولى بعنوان "يلاً عاوزين نفرح"¹ أما الثانية فمقتطفة من محاضرة² ألقاها في قبة المنزه خلال زيارته إلى تونس وهي مجموعة من النصائح الموجّهة إلى الشعب التونسي. ويعزى اختيارنا هذا الداعية المثير للجدل في كلّ أرض يطؤها وفي أي تصريح يدلي به إلى توسّله الفكاهة في نظم خطبه. والفكاهة كما يذهب فرويد هي آلية نفسية دفاعية "تسمح للمرء بأن يواجه موقفاً صعباً من دون أن يقع فريسة للانفعالات غير السارة المصاحبة لهذا الموقف"³ لكنّها لم تُستحضر في هذه المدونة لهذه الغاية. فهي بالنسبة إلى المتكلم طريقة لتمرير المعنى وإرغام المستمع على التسليم بالقناعات المطروحة عليه. وهكذا تجثم خلف الخطاب الساخر الملقى سلطة ما على النفوس.

في هذه الورقة البحثية، وأثناء سعيينا إلى اختبار هذه الفرضية، سنتوسّل منهجين، بينهما وشائج شتى رغم اختلافهما الظاهري، يبني الثاني فرضياته على النتائج التي يتوصّل إليها الأول فيكون التحليل بذلك أخذاً بعضه برقاب بعض. ونحن في هذا الإطار سنسلّط الضوء على ظاهرة "الأمر" باعتبارها إحدى الدعائم الأساسية التي يرتكز عليها الخطاب الذي سنوّل وجوهنا شطره لدراسة كيفية اشتغالها وكيفية توظيف المتكلم عناصر السياق من أجل الوصول إلى مبتغاه محوّل اللّغة من وسيلة للتواصل إلى مطية يتوسّلها لبيسط نفوذه على مخاطبه. ولما كانت هذه غايتنا كان سؤال البحث: كيف حضر الأمر في هذا الخطاب؟ وكيف رسم العلاقة بين طرفي العملية التواصلية؟ وكيف ترجمت عملية إصدار الأمر مركزية موقع المتكلم في الحقل الاجتماعي الذي ينتهي إليه؟

يندرج الأمر من الأفعال التوجيهية حسب تصنيف معظم التداولين. فقد صنّفه باخ (Kent Bach) في مقاله الموسوم بـ (speech acts and pragmatics) ضمن الصنف الثالث من الأعمال التوجيهية الذي يطلق عليه اسم "المتطلبات" إلى جانب العرض والتكليف والطلب وغيرها من الأعمال. ويجعل لهذه الأصناف

1- وجدي غنيم، 2011، يلاً عاوزين نفرح، رابط الخطبة على اليوتيوب: <https://www.youtube.com/watch?v=xaOhLzqubqk>

2- وجدي غنيم، محاضرة الغزو الفكري، قبة المنزه تونس، 2012: <https://www.youtube.com/watch?v=j0wjKUXhJMk>

3- شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص130.

افتراضات مسبقة تنحصر في قاعدتين هما قاعدتا الكم والكيف. وقد حضر في المدونة التي نحن إليها بسبيل بأشكال مختلفة كاشفا نوع العلاقة التي تجمع بين طرفي الخطاب.

2- أشكال حضور الأمر:

يحضر الأمر في هذه المدونة في صيغتين مختلفتين. تتمثل الصيغة الأولى في فعل الأمر "افعل". "وقد يحذف فعل الأمر بدلالة سياق الكلام عليه"¹. أما الصيغة الثانية فتتمثل في الأمر في صيغة الخبر.

2-1- صيغة فعل الأمر:

تعتبر هذه الصيغة الأكثر استعمالا في الدلالة على طلب الفعل وتفيد الامر المطلق أو الأمر المقيّد وينقسم الصنف الأول بدوره الى أمر مطلق دال على الفور وأمر مطلق دال على التراخي وبينما يتقيّد الصنف الثاني بزمان أو شرط أو سبب أو صفة. وفي الخطاب الذي سنتناوله بالتحليل يحضر دالاً على الوجوب ومقيّد بزمان معيّن.

ويمكننا أن نتبيّن حضور الأمر المطلق الدالّ على الوجوب في قوله الموجه إلى جمهوره في القبة "أظهر شعائر الإسلام وربّ لحيتك"². فقد ورد الأمر في هذا المثال متجرّداً من القرائن التي تقيده بشرط أو سبب أو حالة أو زمن. وهذا التجرد يكشف اقتضاء وجوب المأمور به على الفور. ونحن نستند في زعمنا هذا على السياق القوليّ (Cotexte) الذي ورد فيه المثال المدروس. فهو يقول: "أرجو من الشعب التونسي بعد ربّنا ما حرّركم من الطواغيت الحمد لله"³. ثم يضيف بعد المثال المدروس: "كنا بنحلق ذقوننا وقلنا للإخوة يبقوا يحلقوا ذقونهم أيام الطواغيت حسبنا الله ونعم الوكيل"⁴. فالناظر في هذا السياق يلاحظ أنّ سبب امتناع المستمع عن إظهار شعائر الإسلام قد انتفى ورحل برحيل المتسببين في وجوده. بعبارة أخرى ولّد وجود هذه الأنظمة نتيجة مفادها ملاحقة الإسلاميين وكل "من يلتزم بشعائر الدين". ومثل هذا الأمر حالة أوليّة لنسق ما ومحدّدا لما لحق المنتميين الى التيارات الاسلاميّة من ملاحقات. وانتفاء هذا السبب ينتج عنه بالضرورة

1- رافع الرفاعي العاني، الأمر عند الأصوليين، الطبعة الأولى، دار المحبّة دمشق، دار آية بيروت، 2007، ص 86.

2- وجدي غنيم، محاضرة الغزو الفكري، قبة المنزه تونس، 2012، الدّقيقة الخامسة عشرة.

3- المصدر نفسه، الدّقيقة الرابعة عشرة وخمسون ثانية

4- المصدر نفسه، من الدّقيقة الخامسة عشرة وست ثوان الى الدّقيقة الخامسة عشرة واثنتي عشرة ثانية

انتفاء النتيجة لذلك صار الالتزام بإظهار هذه الشّعائر واجبا وينبغي تنفيذه على الفور ولا مبرر لتأخيره. وبالتالي فإنّ الأمر المطلق في هذا المقام يدلّ على الوجوب¹ و"الوجوب يمتاز عن النّدب بامتناع الترك"². ويحضر الأمر في مواضع أخرى مقيّدا بشرط يفيد، دليلنا على ذلك ما ورد في قول المتكلّم "اللي يكلمك قل له انا مسلم"³ (إذا كَلّمك أحدهم قل له أنا مسلم). فقد ورد فعل القول هنا "قل له أنا مسلم" جواب شرط "إذا كَلّمك أحدهم". وزمنهما ممتدّ ودائم ففعل التصريح بالانتماء إلى الاسلام لا يمكن أن يحدث إلاّ إذا حصل فعل الكلام. ولكنّ الناظر في صيغة الامر في هذا المثال يلاحظ انه رغم تعلّقها بشرط "لا تقتضي التكرار لا لفظا ولا قياسا وحكمه حكم الامر المجرد في إفادة ذلك، أي الصيغة لا تفيد مرّة ولا تكرارا بذاتها"⁴ وإنّما يحدّده السّياق. ونحن نذهب هذا المذهب انطلاقا من السّياق لتاريخي لهذا الخطاب. فقد أنتج في الفترة التي كان فيها الصّراع بين الاسلاميين والعلمانيين على أشده. ومجرد نطق المأمور لمفوض "أنا مسلم" يؤكّد انتماءه الى أحد طرفي النزاع. والتّصريح بالانتماء كما هو معلوم لا يحتاج إلى تكرار ليتحقّق.

ويقول المتكلّم في موضع آخر "خذ الدّين كلّهُ لأنك حتقعد قدّام المأذون أو القاضي حيقولك على كتاب الله على كتاب الله وعلى سنّة رسول الله وعلى سنّة رسول الله. مش حتقول كده؟ خليك راجل. خليك راجل"⁵ فالأمر الوارد في هذا المثال مرتبط بسياق محدّد. فقد سبق في إطار الحديث عن طقوس الاحتفال "والفرح يكون إسلامي"⁶. فرغم تقييده بشرط، دلّ على الوجوب. دليلنا على ما نذهب إليه تكرار جملة الأمر الثّانية "خليك راجل" (كن رجلا). والتكرار كما هو معلوم، إضافة الى كونه أداة فعّالة للتنبية، وسيلة ناجعة للتوكيد. وهو في هذا السّياق يدلّ على أنّ الأمر قد ورد على جهة الوجوب لتعلّق تنفيذه بتوقّر شرط الرّجولة في المستمع. وبذلك يكون المعنى المضمّر في القول المصحّح به "الرّجولة أحد نتائج الالتزام والدّين لا يلتزم به إلاّ مكتمل الرّجولة" فتكون النتيجة والالتزام التّام بتعاليم الدّين لا ينتظر أن يتمّ على التّراخي أو أن يتمّ تأجيله. ولمّا كان الأمر يشير إلى أنّ المتكلّم يريد من مخاطبه أن يقوم بعمل ما أو يمتنع عن القيام به⁷ ويترجم

1- يذهب فخر الدّين الرّازي الى دلالة فعل الامر المطلق على الوجوب. وقد علل توجهه بالآية الثّانية عشر من سورة الأعراف ﴿ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك﴾ والآية السابعة والأربعين من سورة المرسلات ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ ففي الآية الأولى يرى أنّ الاستفهام ما كان سيرد للذمّ لو الامر ورد على النّدب وعلى التراخي أمّا في الآية الثّانية لو كان الامر يفيد التّراخي لقليل لهم الأولى أن تركعوا ويجوز لكم ترك الأمر ولها تمّ ذمهم على فعلهم. لمزيد التوسع يمكن العودة الى:

فخر الدّين الرّازي، المحصول في علم أصول الفقه، ج2، دراسة وتحقيق طه جابر الفيّاض العلواني، مؤسسة الرّسالة، دت، الفصل الأوّل في المباحث اللّفظيّة.

2 فخر الدّين الرّازي، المحصول في علم أصول الفقه، ج2، مرجع سابق، ص44.

3وجدي غنيم، خطبة الغزو الفكري، الدّقيقة الخامسة عشرة وسبع وخمسون ثانية

4 رافع العاني، الأمر عند الأصوليين، مرجع سابق، ص247.

5وجدي غنيم، يلاً عازين فرح، الثّانية الحادية والعشرين إلى الثّانية الخامسة والثلاثين.

6 المصدر نفسه، الثّانية السابعة عشرة.

7- Penelope Brown & Stephen Levinson, *Politeness Some universals in language usage*, Studies in interactional Sociolinguistics 4, Cambridge university press, 1987, P.66.

رغبة في الانتقال من وضع موجود إلى آخر منشود فإنه من المفترض أنه يضمم وراء الأمر الذي يصدره إثباتا آخر مفاده أنت غير ملتزم بعموم الدين .

2-2- الأمر بصيغة الخبر:

يثير تداخل الوظيفتين الوصفية والحجاجية للغة إشكالا كبيرا في تحديد غاية المتكلم من إنتاج الجمل الخبرية. الأمر الذي حدا بغاردنر (Howard Gardner) إلى اعتبار "الأهداف التي تُساق لأجلها الجمل الخبرية هي أعسر تحديدا من بقية الجمل"¹. وفي الخطاب الذي نحن إليه بسبيل، أُجريت الجملة الخبرية للدلالة على طلب الفعل. وهذا الأسلوب في الأمر أكد في الدلالة عليه من صيغة فعل الأمر لأنه يدل على حرص الطالب على تحقيق مطلوبه. ويتجلى ذلك في قول المتكلم: "السعادة في أنك تختار أخت مسلمة. دا الزوج المسلم والفرح يكون إسلامي"².

ونحن إذا ما أمعنا النظر في هذا القول نلاحظ أن المتكلم يُعرف السعادة رغم إقرار الدارسين³ بصعوبة الإحاطة بها وعسر تحديد ملامحها وتعيين مبتدأها ومنتهأها وتصنيفها. فهو يحدد أركانها ويتحدث عن مظاهرها (اختيار الزوجة المسلمة وإقامة حفل الزفاف على الطريقة الإسلامية) ثم يعين الشخص السعيد (دا الزوج المسلم). ولما كانت الغاية من هذه الجملة الخبرية غير الوصف والإخبار، فإن الغرض من إنشائها ظلّ ثاو خلف هذا التعريف واستجلاءه ليس يتسنى إلا بتبيين الاستدلال الذي يبينه المتكلم من خلال الرؤية التي تمّ رسمها للسعادة. ومفاد هذا الاستدلال كالتالي:

مقدمة كبرى: السعادة في اختيار الزوجة المسلمة وإقامة "الفرح الإسلامي".

مقدمة صغرى: أنت مسلم وتريد أن تكون سعيدا.

نتيجة: اختر زوجة مسلمة وأقم حفل زفافك على الطريقة الإسلامية.

ولما كان المقام ليس مقام إخبار فإن إنتاج هذه الجملة يعدّ انتهاكا لمبدأ العلاقة⁴ الذي تحدّث عنه غرايس (Grice) والذي مفاده "لتكن مساهمتك مناسبة لما هو مطلوب"، فإن المتكلم في هذا المثال يسعى، وهو

1- جاك موشلار & آن رويول، مدخل نظرية الاعمال اللغوية، ترجمة شكري المبخوت ضمن القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الباحثين، إشراف عز الدين المجذوب، سلسلة اللسان، المركز الوطني للترجمة تونس، دار سيناترا، 2010، ص 54.

2- وجدي غنيم، محاضرة "يلاً عايزين نفرح"، من الثانية الخامسة عشرة إلى الثانية التاسعة عشر.

3- يثير تعريف السعادة إشكالا كبيرا فقد اختلف حوله الدارسون وتباينت آراءهم فالتصور الرواقي مثلا يقترح فكرة التصالح مع الأقدار والرضا بما نحن عليه تعريفا لها بينما يربطها الرازي والفارابي بالمتعة العقلية ويرأها أهل التصوف في المجاهدة من أجل تحرير النفس من رغباتها وشهواتها. لمزيد التوسع في موضوع السعادة يمكن العودة إلى:

ليزا بورتولوتي، الفلسفة والسعادة، ترجمة وتقديم أحمد الأنصاري، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، 2013.

4- في حديثه عن مبدأ التعاون في المحادثة، تكلم غرايس على أربعة مبادئ فرعية وهي تباعا مبدأ الكم ومبدأ الكيف ومبدأ العلاقة ومبدأ الصدق. يشمل ثالث هذه المبادئ "مبدأ العلاقة"، خلاف بقية المبادئ، قاعدة واحدة مفادها "لتكن مساهمتك مناسبة لما هو مطلوب" وقد أقر غرايس بوجود عدّة صعوبات وعد بدراستها في عمل لاحق. لمزيد التوسع أنظر (ي) مقال غرايس الموسوم بالمنطق والمحادثة.

يتوسّل الأمر في صيغة الخبر، إلى مضاعفة درجة الإبلاغ معوّلاً على ما هو مشترك من معارف لغويّة وغير لغويّة وعلى قدرة سامعه على التّأويل والاستدلال "فأن نتكلّم يعني أن نفعّل شيئاً تحت ستار آخر"¹. فقد أُجري الأمر بصيغة الخبر للتّوكيد على الفعل والمبالغة في الإيجاب. فيبدو المأمور به كما لو وُجد وصار في حكم المُنجز. وكلّ ما يقوم به المتكلّم هو الإخبار عنه. لذلك نزل المتكلّم السّعادة في هذا المثال منزلة ما تمّ إقراره ولا يحتاج إلى أمر مستندا في ذلك إلى الجملة الإسمية. والجملة الإسمية كما هو بيّن "تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء (...) ولكن (...) قد يكتنفها من القرائن والدلالات ما يخرجها عن أصل وضعها فتفيد الدّوام والاستمرار"². فاعتبار موضوع اختيار الزوجة المسلمة من أسباب السّعادة إذن أمر ثابت ومستمرّ وينبغي على المستمع أن يمثل له رغم سماح الشّارع بالزّواج من غير المُسلمات³. فالتّعبير عن الأمر بصيغة الخبر في هذا السّياق ليس إلاّ محاولة لمضاعفة اعتقاد المستمع أنّ المأمور به ثابت ومستقرّ وانتفت أيّ إمكانية للتّراخي أي أنّ الأمر قد أُجيب وحصل. وبذلك يشير المتكلّم إذن إلى الأمر والتّنفيد معا. دليلنا على نزع ما ذهب إليه الزّمخشريّ من خلال قوله: "إنّ إخراج الأمر بصيغة الخبر أبلغ من صريح الأمر لأنّه يفيد تأكيده حتى كأنّه سورع فيه إلى الامتثال والانتفاء فهو يخبر عنه"⁴.

نخلص إلى القول إذن أنّ الأمر في هذه المدوّنة دلّ على الوجوب في جميع تجلّياته وهذا الوجوب ان دلّ على شيء فهو يدلّ على العلاقة التي تجمع طرفي العمليّة التّواصلية في جانب محتواه الدّلالي، يتضمّن الملفوظ قيمة علائقية ما و "هي قيمة تفعل فعلها المخاتل والتّاجع في ذلك التّحاور حتّى وان كانت غالبا أشدّ اختفاء"⁵. فيغدو الخطاب بذلك مجالا تتفاعل فيه الأطراف التي تنتجها فتنشأ بينها مجموعة من العلاقات الاجتماعيّة- العاطفيّة كالتّنائي أو الألفة، المساواة أو السّلميّة وغيرها من العلاقات. فكيف يترجم الأمر إذن العلاقة القائمة بين طرفي العمليّة التّواصلية في هذا الخطاب الذي نحن إليه بسبيل؟

3- الأمر والعلاقات البينشخصيّة في الخطاب الدّينيّ:

رغم توافقه التّام مع مبدأ التّعاون وتحديد القاعدة الثّانية (قاعدة الكيف)، يُمثّل الأمر إخلالا بالعلاقات الاجتماعيّة ويعود ذلك إلى ما يقتضيه من تصريح في الخطاب. ويمكن أن تسبّب هذه السّمة في إخراج المتلقّي وقد تجعل الملفوظ أشبه بعمليّة تطفّل على شؤونه. ممّا ينتج نزاعا أو قطيعة في العمليّة

Grice H. Paul. *Logique et conversation. In: Communications, 30, 1979. La conversation*, Consulté le 13/08/2018/ 17^h10^m www.persee.fr/doc/comm_0588-8018_1979_num_30_1_1446,

1- Catherine Kerbrat-Orecchioni, *Les actes de langage dans le discours : théorie et fonctionnement*, édition NATHAN, 2001, p33.

2- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، الطبعة الأولى، دار النّهضة العربيّة، 2009، ص48.

3- نقصد تحديدا الآية الخامسة من سورة المائدة ﴿اليوم أحلّ لكم الطّيّبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا اتّيموهنّ أجورهنّ محصنين غير مسافحين ولا متّخذين أخدان﴾.

4- الزّمخشري، تفسير الكشّاف، الطبعة الثالثة، دار المعرفة بيروت لبنان، 2009، ص365.

5- كاترين كبربات أوركينيوني، مدخل علاقة بينشخصيّة، معجم تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص484-485.

التواصلية. ذلك أنه كلما أوغل العمل اللغوي في التصريح صار أقرب إلى الفظاظة (Impoliteness) وحد من فرص الاختيار للمستمع. وهذا ما يجعلنا نطرح علاقة الأمر بالتأدب في الخطاب نحن إليه بسبيل.

3-1- الأمر والتأدب (Politeness):

يتنزل الأمر عند الثنائي براون وليفنسن ضمن الأعمال اللغوية التي تنبني على الفعل المستقبلي وتمارس ضغطا على المتلقي للإذعان أو الامتناع عن الفعل¹ ويعني أن المتكلم يريد من المستمع أن يقوم بعمل ما أو يمتنع عن القيام به². وأورده ليتش ضمن أفعال التنافس (competitive category) التي يغلب عليها الطابع الإنجازي متحوّزا القطب المتصل بخسارة المستمع وفضاظة المتكلم في سلمه الموسوم بـ (cost-benefit scale) وهو سلم يقيس من خلاله المتكلم مقدار التكلفة والاستفادة لنفسه ومقدار التكلفة والاستفادة الحاصلة لمخاطبه. ويقوم هذا السلم على ترتيب الخيارات التي تُشير إلى درجة الصراحة في الكلام المسموح بها للمتكلم وهامش الحرية المقدم للمستمع³ وهذا ما جعل بعضهم يذهب إلى أن "الأمر يشغل في آن واحد كعمل مهدد للوجه (Face threatening acts) وكعمل مُعل من شأن الوجه (Face flattering acts)"⁴. فنستشف ممّا سبق أن للأمر صلة عكسية بمبدأ التأدب ويعزى ذلك إلى تصريح المتكلم برغبته في إلزام المستمع بالقيام ببعض الأعمال أو الكفّ عن فعلها. وصياغة الأمر في شكل جملة خبرية أو إخراجها في صيغة فعل الأمر "افعل" كما رأينا في الأمثلة التي سلطنا عليها الضوء أنفا يدلان على أن المتكلم قد أصدره على وجه الاستعلاء والإلزام وأنّ المأمور به انتفت عنه أيّ إمكانية للتأخرى في تنفيذه وصار في حكم الحاصل. هذه الصبغة الإلزامية للأمر تحرم المستمع حقّه في رفض ما تمّ بثّه وتنفي عنه صفة المتلقي لتجعله متقبلا. لذلك يعتبره ليتش "فعل إكراه" لما يُسببه من حرج للمستمع منزلا إياه ضمن التأدب السلبي (Negative Politeness)⁵.

1- في نظرية الثنائي براون وليفنسون، تتوزع الأعمال اللغوية إلى أربعة أصناف حسب معيار الوجه الذي يمكن أن تهدده وهي تباعا أعمال تهدد الوجه السلبي للمتكلم وأخرى تهدد وجهه الإيجابي وأعمال تهدد الوجه السلبي للمتلقى وأخرى تهدد وجهه الإيجابي Penelope Brown & Stephen C. Levinson, *op. cit.*,

2- Ibid., P.66.

3- لمزيد التوسّع في هذا الإطار يمكن العودة إلى:

Geoffrey Leech, *Principles of pragmatics*, Longman Linguistics Library, 1983, pp107/108/109/110

4- كاترين كبرات-أوركيني، مقال وجه، معجم تحليل الخطاب، إشراف دومنيك مانغنو وباتريك شارودو، ترجمة حمادي صمود وعبد القادر المهيري، المركز الوطني للترجمة دار سيناترا، تونس، 2008، ص 252

5- التأدب السلبي كما ورد عند الثنائي براون وليفنسن هو عمل تصحيحي موجّه للوجه السلبي للمتلقى (ويعني مفهوم الوجه السلبي في لسانيات التأدب. "رغبة كلّ" عضو بالغ ومؤهل "في أن لا يعيق الآخرين أعماله" (Brown&Levinson,1987,p62)) كرهته في الحصول على حريته في الفعل دون عوائق ص 129 وترى أوركيني في التفاعلات القولية أنّ التأدب السلبي هو تجنّب ارتكاب فعل له مكانه في سياق التفاعل قد يهدد المتلقي" (1992، ص 195) لمزيد التوسّع في مسألة التأدب السلبي يمكن العودة إلى:

*Penelope Brown & Stephen C. Levinson, *op. cit.*, p129-210.

*Catherine (Kerbrat-Orecchioni): *Les interactions verbales Tome2*,Linguistique, Armand Colin, 1992, deuxième partie: La politesse dans les interactions verbales.

فالمتكلم في الأمثلة المدروسة يصّر على تنفيذ مبتغاه مثيرا بذلك إشكالا على المستوى العلائقي. فهو بإنتاجه هذا العمل اللغوي (Acte de langage)، يقوم بحماية وجهه الإيجابي (الوجه الإيجابي كما ترى أوركويوني هو "مجموع الصّور التمجيدية التي يبنمها المتكلمون لأنفسهم ويسعون إلى فرضها في التفاعل")¹ ويريق ماء وجه مخاطبه من خلال إلزامه بتنفيذ العديد من الأعمال كالالتزام بشعائر الإسلام وإطلاق اللحية واختيار الزوجة المسلمة والاعتزاز بالانتماء إلى الإسلام والتّصريح به رافعا بذلك التكلفة (cost) عليه حارما إيّاه من حقّه في الاختيار غير عابئ بتوجّهاته. فالمستمع يمكن أن يكون له مثلا رأي مخالف في مسألة اختيار الزوجة استنادا إلى الرّخصة التي يقدّمها له الشّارع أو أنّه يلتزم بشعائر الإسلام ولكن بطريقة غير التي يراها المتكلم. لذلك يعتبر التّشديد على تنفيذ الأمر اختراقا للقاعدة الثّانية للتأدّب في نظريّة روبن لايكوف (Robin Lakoff) وهي قاعدة التّخيير التي مفادها "افسح مجال الخيار لمخاطبك". فالمتكلم حسب هذه القاعدة ينبغي أن يترك مجال الخيارات أمام المخاطب مفتوحا ليتخذ قراراته بنفسه ولكنّه في حالة إصدار الأمر كما رأينا استولى على حقّه في الاختيار وأجبره على الإنجاز. هذا الاستيلاء يمثّل انتهاكا صارخا للوجه السّلبّي للمتلقي والوجه السّلبّي كما تذهب أوركويوني هو مجموع مساحات الأنا كالحرم الجسديّ والفضائيّ والزّمانيّ والمتاع المادّي².

ويظهر تهديد ماء الوجه أيضا من خلال المعنى المضمر في الأمر. فربط المتكلم الالتزام بعموم الدّين بالرجولة يكشف قولاً آخر يخفيه المتكلم تحت المعنى الحرفيّ المصحّح به يمكننا استنتاجه من خلال الطّبيعة الدّلالية للأمر. فطلب تحقيق الفعل في زمن لاحق يعني انعدامه في الزمن الحاضر وطلب المتكلم الالتزام بعموم الدّين يعني أنّ الالتزام الحاصل التزم صوريّ يقتصر على المظهر و أنّ صورة المستمع الخارجيّة غير مطابقة تماما لباطنه. وبالتالي يضمّر المتكلم ذمّا للمستمع والذمّ من الأعمال التي ترفع الكلفة على المستمع كما يذهب ليتش.

نستخلص ممّا سبق قوله إذن أنّ المتكلم في الأمثلة التي سلّطنا عليها الضّوء يتوسّل الفظاظلة (Impoliteness) في توجيهه الأمر ويتعمّد إراقة ماء وجه المخاطب (Losing face) لبلوغ غايته رغم بعض الطّرائف التي يرومها بين الفينة والأخرى. فالفظاظلة تشكّل في هذا المقام تواصلا قصديّا يتم فيه إبلاغ العمل اللّغوي المهذّب لماء الوجه بشكل هادف وتفاقم حدّة هذا العمل يتسبّب في خسارة الوجه وتلفه³ ويعكس هذا الشّكل من التّواصل طبيعة العلاقة التي تجمع بين طرفي العمليّة الخطابيّة. فالخطاب لا يشتغل على مستوى المضمون فحسب وإنما تتحدّد غايات مُنشئه ومقاصده أيضا انطلاقا من البعد العلائقيّ. ذلك أنّ الملفوظ دائما ما يحمل بين طيّاته قيمة علائقيّة تعمل بشكل خفيّ لكنّه فعّال. يمكننا دراسة هذه القيمة اعتمادا على محور العلاقات البيئشخصيّة.

1- كاترين كبريات أوركويوني، مقال وجه، معجم تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 251

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- Derek Bousfield *Impoliteness in interaction*, Jhon Benjamins Publishing Company, Amsterdam, Philadelphia, 2008, p72.

3-2- الأمر ومحور العلاقات البينشخصية (Axe de relation interpersonnelle):

تكشف صيغتنا الأمر في الأمثلة التي تناولناها بالتحليل أنه وُجّه على سبيل الاستعلاء والإلزام. و "طلب المتصوّر، على سبيل الاستعلاء، يورث إيجاب الإتيان على المطلوب منه، ثمّ إذا كان الاستعلاء ممّن هو أعلى رتبة من المأمور استتبع إيجابه وجوب الفعل"¹.

ونحن إذا ما أمعنا النظر أيضا في عملية إراقة ماء الوجه في الخطب التي ولّينا وجوهنا شطرها، والاتجاه الواحد الذي يسير فيه الخطاب (أي أن يحتكر المتكلم عملية التلقّظ وما على المستمع إلا الإنصات) يتراءى لنا أنّهما يترجمان علاقة عمودية (Relation Verticale) بين المتكلم ومستمعه. وهي علاقة ذات طبيعة تدريجية (Graduelle) وغير متناظرة (Dissymétrique) يتبوأ فيها طرفا الخطاب مواقع مختلفة في المحور العمودي للعلاقات البينشخصية يتحوّز فيها الطرف الأوّل موقعا متعاليا بينما يكتفي الثاني بدور المهيمن عليه قانعا بموقعه السفلي. وترتبط هذه العلاقة ببعض العوامل السياقية كالعمر والمنزلة الاجتماعية والكفاءة المهنية والمنصب والانتماء لذلك يذهب الشّهري إلى أنّ الأمر أكثر الأساليب المستعملة في الإستراتيجية التوجّهية². ويشترط لتحقيقه، إضافة إلى الأدوات اللغوية، توفّر السلطة وتوجّه الاستفادة لأحد طرفي الخطاب. فإصدار الأمر يعني رغبة ملحة في الانتقال إلى وضع غير الوضع الذي يعيشه طرفا العملية التواصلية لحظة التلقّظ. ولا يصدر ذلك إلا عن صاحب نفوذ.

لا يمكننا الحديث إذن عن علاقة عمودية بين طرفي الخطاب دون الحديث عن موقع المتكلم في السّلم الاجتماعي وبالتالي الحديث عن شرعيته حيث "يجب أن تكون هناك سلطة وإيمان وعلاقة بين مرسل مرخص ومتلق مستعد لتلقّي ما يقال ومؤمن بأنّ ما يقال يستحقّ أن يقال (...). لتلخيص الموضوع على نحو نظري وسريع، يفترض التّواصل في حالة سلطة تربيوية مرسلين شرعيين ومتلقين شرعيين ووضع شرعي ولغة شرعية"³. وهذه الشرعية التي يتمتع بها المتكلم تسمح له بإراقة ماء الوجه كما رأينا آنفا. ولا يمكن أن يمارس المتكلم هذا التّفوذ إلا إذا كان يملك صلاحية القيام بذلك. ف"ينبغي للمرء الذي يصدر أمرا أن يكون مؤهلا لذلك، ولكن بمجرد إصداره يدعي المتكلم ممارسة نفوذ ما على المرسل إليه ووضع نفسه في موقع مرتفع لم يكن له حتما في بداية الخطاب"⁴. فنخلص بذلك إلى أنّ المتكلم لا يصدر أمرا فحسب بل يذكّر ضمينا بموقعه الاجتماعي وسلطته خارج الخطاب. ولكننا إذا نظرنا بتروّ في الأمثلة المدروسة يمكننا أن نتساءل: أيّ فائدة يجنمها المتكلم من إصداره هذه الأوامر؟ وهل رفع التكلفة على المستمع في هذا الخطاب يقابله

1- أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، الطبعة الثانية، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1987 ص 318.

2- عبد الهادي الشّهري، استراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداوليّة، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتّحدة، مارس، 2004، ص 343.

3- بيير بورديو، مسائل في علم الاجتماع، ترجمة هناء صبحي، مراجعة فريد الزاهي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2001، ص 167.

4- كاترين كبربات أوكيون، مقالة علاقة بينشخصية، معجم تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 485.

بالضرورة زيادة الفائدة للمتكلّم؟ وهل يعتبر المتلقّي فعلاً أنّ الأمر في هذا السّياق إخراجاً له وتطّفاً على شؤونه كما يرى اللّسانيّون؟

4- المتكلّم ونظام المواقع:

4-1- أسلوب الأمر وممارسة العنف الرّمزيّ (La Violence Symbolique):

تمثّل حيازة الكلمة من موقع متعال و إصدار الأمر على سبيل الاستعلاء وإراقة ماء الوجه عنفا رمزياً يمارسه المتكلّم على مخاطبه. والعنف الرّمزيّ¹ حسب بيير بورديو عنف غير مرئيّ، يُلحق الضّرر بالأخريّن عبر استخدام الرّموز والدلالات والمعاني من أجل بسط النّفوذ عليه، وكثيراً ما يُحقّق نتائج أفضل من تلك التي يحققها العنف السّياسيّ البوليسيّ². يعرّفه رفقة جان كلود باسرون بقولهما "إنّ كلّ سلطة عنف رمزيّ، أي كلّ سلطة تطال فرض دلالات وتطال فرضها على أنّها شرعيّة أن توارى علاقات القوة التي هي منها مقام الأسنّ لقوّتها"³. ويقول بورديو في موضع آخر أنّها: "نفوذ يفلح في فرض دلالات معيّنة، وفي فرضها بوصفها دلالات شرعيّة، حاجبا علاقات القوة التي تؤصّل قوّته"⁴. دليلنا على ما نذهب إليه أنّ استعمال الأمر في الخطاب الذي نسّط عليه الضوّء يحمل نزعة تربيويّة. والنّشاط التربيوي كما هو معلوم نوع من العنف الرّمزيّ باعتباره تعسّف ثقافيّ تمارسه جهة ما على جهة أخرى⁵. لذلك لا تمثّل عمليّة إراقة ماء الوجه، كما ذكرنا آنفاً، رفعاً للتكلفة على المستمع كما يذهب اللّسانيّون لأنّ المتلقّي في هذه الحالة "متواطئ" ولا يرى فيما يفعله المتكلّم تطّفاً على شؤونه. فمن شروط العنف الرّمزيّ أن يتقبّله الطّرفان بشكل بديهيّ لتعودهما عليه واعتقادهما أنّه بمثابة حتميّات ومسلمات يتمّ العمل على تكرّسها في الحياة اليوميّة ولا يلقي أيّ رفض أو مقاومة رغم نتائجها الخطيرة. والنّاظر في صيحات التّكبير في خطبة "الغزو الفكريّ" والضحك في الخطبة الثانية، يلاحظ أنّهما علامة على الاستحسان والإعجاب بما يقال رغم اندراجه ضمن خانة العنف الرّمزيّ.

1- لكي نفهم بشكل واضح استعمال هذا المفهوم عند بورديو، لا بدّ من الوقوف أولاً عند التصور الماركسي للعنف والسلطة، وهنا سنأخذ أحد النماذج الواضحة في علم الاجتماع الألماني والذي يعتبر محطة أساسية في التنظير السياسي، إنه عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، يذهب فيبر مذهب كارل ماركس في تصوّره للعنف، فيعتبر أن العنف المادي -أو العنف البوليسيّ بتعبير بورديو - تربطه علاقة حميمة بالدولة فمنذ القديم اتخذت التجمعات السّياسيّة المختلفة العنف الماديّ مطيّة لبسط سيطرتها. ليكون بذلك وسيلة طبيعيّة للسلطة.

2- هذا هو جوهر اختلاف بيير بورديو مع التّيار الماركسيّ، يذهب بيير بورديو إلى أنّ أحد أكبر مظاهر النّقص في الماركسيّة هو أنّها لم تعر اهتماماً لمثل هذه "الأشكال اللطيفة من العنف" - أي العنف الرّمزيّ - وتأثيرها حتى في المجال الاقتصادي. ويعتبر بورديو هذا الصنف من العنف شكلاً من أشكال السلطة التي تمارس على فاعل اجتماعي بتواطؤ منه، وكيفما كان الأمر تضعنا هذه الرؤية تضعنا أمام إشكال يتعلّق بمسألة مصدر السلطة وإذا ما كانت تستمدّ شرعيّتها من الأسفل أو من الأعلى.

3- بيار بورديو & جان كلود باسرون، إعادة الانتاج في سبيل نظريّة عامّة لنسق التعليم ترجمة، ماهر تريمش، الطبعة الأولى، المنظمة العربيّة للترجمة، نوفمبر، 2007، ص 102.

4- بيار بورديو، العنف الرّمزيّ بحث في أصول علم الاجتماع التربيويّ، ترجمة نظير جاهل، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربيّ، 1994، ص 5.

5- المرجع نفسه، ص 7.

وهذه الصيحات يمكننا مقابلتها مثلا بـ "التصفيق الاستحسانى"¹ الذي يعقب العروض الفنية وترجم حماسة شديدة لتنفيذ الأوامر الموجّهة إليه من قبل "الجهة المتعسّفة" على حدّ عبارة بيار بورديو. ولكن لسائل أن يتساءل إذا كان الأمر في هذا السياق لا يمثل إحراجا للمخاطب فهل يقدم في المقابل فائدة للمتكلّم؟

لئن كانت فائدة المتكلّم في الحياة اليومية ماديّة كأن يتحصّل على شيء ينقصه من خلال إصدار الأمر أو خدمة تسهّل نشاطه (نقشير البطاطا كما في الأمثلة التي يضرّ بها ليتش)، فإنّ فائدة المتكلّم في هذا السياق تبدو رمزيّة كالعنف الذي يسلّطه على المستمع. فالنظام المتلقّي باللّحية والحجاب والنّقاب وإقامة حفل الرّفاف وفقا للمقاييس "الإسلامية" يُعتبر فرض جملة من التّصوّرات والرّموز التي تناسب الفئة التي ينتمي إليها ليفرض مشروعيّة سيادتها رمزيّا عن طريق إنتاج الرّمزيّ. ولبلوغ غايته يقوم بإعادة إنتاج نشاط اجتماعي ليحوّله إلى طقس دينيّ، ضاربا عرض الحائط مشاركة الرّساميل الثّقافيّة والاجتماعيّة في بناء هذا النّشاط محوّلّا إيّاه إلى "مسابقة دينيّة" تطرح فيها الأسئلة عن السّبع سماوات والسّبع أرضين وأزواج الصحابيّات وزوجات الصّحابة. فيساهم هذا النّشاط الاجتماعيّ في إعادة بناء العلاقات الاجتماعيّة عن طريق التّلقين الثّقافيّ والتمذهب الإيديولوجيّ.

ويمكننا أن نكشف العنف الرّمزيّ أيضا من خلال ترسيخ الهيمنة الذّكوريّة ويعني هذا المفهوم في الجهاز المفاهيمي البورديويّ علاقة هيمنة تمّ تأصيلها في طبيعة بيولوجيّة هي نفسها بناء اجتماعيّ مطبّع² وقد تشكّل هذا المفهوم في هذه المدوّنة من خلال توجيه الخطاب، أثناء الكلام على الزّواج، إلى الرجل دون المرأة "السّعادة أن تختار أخت مسلمة" ثم المرور مباشرة إلى "طقوس" الفرح الإسلاميّ" دون الاكتراث للزّوجة المسلمة وسعادتها أو حتى الاستوصاء بها خيرا واتّقاء الله فيها. هذا التّصوّر للسّوق الزّواجيّة، – باعتباره أساس النّظام الاجتماعيّ كلّه- لا يرى في المرأة سوى شيئا معروضا شأنه شأن بقية البضائع المعروضة في الأسواق واختزالها بهذا الشّكل يجعلها مجرد "وسائل رمزيّة للسياسة الذّكوريّة"³ أي إنّها مجرد وسيلة إنتاج الرّأسمال الرّمزيّ وإعادة إنتاجه فهي، إلى جانب كونها إجراء تمييزيّ للسّمة الذّكوريّة (نذكر على سبيل المثال قيمتي السّمة والعقّة اللتان تجعلانها صالحة للتّبادل في السّوق الزّواجيّة وتوفّران فائدة رمزيّة إضافيّة لذكور العائلة)، لا تعدو أن تكون أكثر من وسيلة إعادة إنتاج بيولوجيّ تنحصر مهمّتها في الوضع والحمل ومسخّرة لصالح مهمّة الذّكور في الإخصاب.

استنادا إلى ما سبق قوله نخلص إلى أنّ هذا النّشاط التربويّ الذي ينضح به الخطاب الذي بين أيدينا لا يمكن أن يمارسه إلاّ من يملك صلاحيّة ذلك لأنّ العلاقة التربويّة تقتضي وجود مرسل شرعيّ ومتلق شرعيّ

¹ العبارة لعماد عبد اللّطيف من كتاب لماذا يصقّق المصريّون بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفنّ، الطبعة الأولى، دار العين للنشر، 2009.

² لمزيد التوسّع يمكن العودة إلى:

بيير بورديو، الهيمنة الذّكوريّة، ترجمة سلمان قعفراني، الطبعة الأولى المنظّمة العربيّة للترجمة، بيروت، أبريل، 2009.

³ المرجع نفسه، ص74.

وهذه الشرعيّة تكتسب من خارج الخطاب. ومادام المتكلم في هذا الإطار يلقي الأوامر ويصدر التعلّمات فإنّه في موقع مرتفع مقارنة بالمتلقّي لأنّ السّلطة التي يمارسها داخل الخطاب هي في الحقيقة صدى لسّلطة أخرى تقبع خارجه.

4-2- المتكلم وموقعه المركزي في الحقل الدّيني:

يمثل الحقل الاجتماعيّ ثمرة سيرورة تاريخية نتيجة مروره بعدة مراحل طويلة وبطيئة وصراعات متعددة. وقد ضرب ببير بورديو على ذلك مثلاً بالحقل الأدبيّ الفرنسيّ الذي لم يكتمل بشكل عمليّ إلاّ في أواخر القرن التاسع عشر مع غوستاف فلوبر. أمّا الحقل الدّينيّ عموماً والإسلاميّ على وجه الخصوص – باعتباره موضوع بحثنا- فلم يكتمل بعد ومازال يعيش إلى اليوم حركيّة مستمرّة ينتج عنها تغيّر للرّساميل وإعادة إنتاج دوريّ. ولا يعتبر بورديو الحقل مجرد تمثّل ذاتيّ أو بناء نظريّ للعالم (فالحقل الفنيّ أو الحقل الدّينيّ أو الحقل الاقتصاديّ مثلاً كلها تخضع لمنطق مختلف¹) إنّما هو وجود واقعيّ مادّيّ، تعكس صورته مجموعة من المؤسّسات الدينية التي تعبّر عنه وتحدّد كيانه.

إضافة إلى المؤسّسات الدّينيّة، يمكننا أن نظفر أيضاً بمجموعة من الفاعلين الاجتماعيّين الذين يعتبرون عملاء مهيمنين (Des Dominants). وتُعزى هذه الهيمنة إلى قبولهم استثمار ذواتهم وإمكاناتهم المادّية والمعنويّة داخل الحقل الاجتماعيّ والدّخول في صراع مع التيارات والخطابات والأديان المنافسة مستعملين في ذلك شتى أنواع العنف الرمزيّ وإعادة إنتاج بعض الرّساميل من أجل الهيمنة على الحقل، ويبدو هذا الأمر جليّاً عند دخول الفاعل (المتكلم بالمصطلح اللّسانيّ) القبّة في "بكاء تمثيليّ" سرعان ما تحوّل إلى مسرحيّة هزلية يتخللها الضّحك أكثر من أيّ شيء آخر. والنّاظر في هذا الخطاب يمكنه أن يستنتج مركزيّة موقع هذا الفاعل انطلاقاً من الصّراع² الدّائر بين ممثليّ هذا الحقل فيما بينهم في مرحلة أولى وصراعهم مع ممثليّ باقي الحقول في مرحلة ثانية.

1- Bourdieu P, Loïc Wacquant, *Réponses. Pour une anthropologie réflexive*, SEUIL, janvier 1992, P72.

2- يحمل كلّ حقل في ثناياه نمطين من الصّراع، النمط الأول صراع داخليّ بين عملائه وفاعليه الذين يتنافسون من أجل مراكز القوة وتمثيل الحقل واحتكار منافعه التي يجنيها، وهذا ما نجدّه واضحاً تماماً في الخطاب الدينيّ في محاولة إقصاء الآخر "العميل المشترك" والصراعات اليومية حتى بين المنتمين إلى تيار واحد، وتصل لحد الشتم والقذف، ومن جهة أخرى يخضع الحقل للصراع بين ممثليه القدماء أو كما يسميها بورديو "الأسماء المكرسة" والوافدين الجدد عليه بينها النمط الثّاني صراع خارجيّ بين ممثلي الحقل وممثلي الحقول المنافسة. والنّاظر في نظرية بورديو في تقسيم العالم الاجتماعيّ، يلاحظ أنّها إلى مجموعة حقول مستقلة نسبياً، وفهم هذا العالم الاجتماعيّ، يتوقف على البحث بعمق وبعديّة كبيرة في كيفية اشتغال آليات حقول ذلك العالم الاجتماعيّ في نفس الحقل وفي تعاملاته مع الحقول الأخرى، أي مدخلات النسق إذا اعتبرنا الحقل كنسق اجتماعي على حد تعبير تالكوت بارسونز، وتبادلات هذا النسق مع الأنساق الأخرى، من أجل الكشف عن واقعها وطبيعتها منطقيها الداخليّ، في علاقته الجدلية بمفهوم السّلطة. يقول بيار بورديو في هذا الصّدّد، في حوار أجرته معه مجلة الفكر العربيّ المعاصر، ع 37، ديسمبر 1985: (إنّ السّلطة ليست شيئاً متموضعا في مكان ما، وإنما هي عبارة عن نظام من العلاقات المتشابهة، ونجد أنّ كل بنية العالم الاجتماعيّ، ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار، من أجل فهم آليات الهيمنة والسيطرة). إن السّلطة إذن، حسب بورديو، بمثابة نظام معقد، يخترق كل العلاقات والترابطات، التي تشتغل داخليا، بواسطة آليات دقيقة وفعالة جدّاً، تتحكم في البنية العامة لذلك النظام.

4-2-1- الصراع الداخلي للحقل:

تتجلى مركزية موقع العون (المتكلم بالمصطلح اللساني) في الخطاب الذي نسلط عليه الضوء من خلال سعيه إلى تقنين الحقل الديني وتحديد المقاييس التي تميزه عن بقية الحقول. فالرجل ينبغي أن يكون "راااجل" وهذا المد الذي يتم التنصيص عليه أثناء نطق الكلمة فيه حرص على التمييز بين الرجولة والذكورة. ويتحدد مفهوم الرجولة في هذا الحقل باختيار الزوجة المسلمة وإقامة حفل الزفاف على الطريقة "الغنيمة"، إن صحت النسبة، وإطلاق اللحية والالتزام بعموم الدين (طبعا على طريقة العون الاجتماعي وجددي غنيم) وبمجرد ترك الوافد الجديد إلى الحقل أي مظهر من هذه المظاهر تسقط عنه الرجولة ليصبح أرنا-والأرنب هنا كناية عن الجبن والعجز عن المواجهة.-.أما المرأة فهي "أخت محجبة ما شاء الله عليها"¹ يتحدد انتماءها إلى هذا الحقل بارتدائها الحجاب. " فالمنطق المحدد لحقل ما يتأسس (...على شكل هاييتوس محدد أو أكثر تحديدا بأحد معاني اللّعب"².

إضافة إلى احتكار السيطرة وتحديد قوانين اللّعب، يملك العون الاجتماعي (المتكلم في الاصطلاح اللّساني) في هذا السياق قوة إخراج بعض المنتمين من دائرة الحقل. ويعزى ذلك إلى أنّ قبول الأعوان داخل الحقل يقوم على أساس التزامهم بمقاييس معترف بها. وبمجرد أن يُسقط هذا العميل أيّ مقياس من هذه المقاييس يتمّ تهميشه فيصير أرنا كما رأينا سابقا أو فتاة من فئة "حجاب ستّة أكتوبر"³ أو يتمّ طرده من الحقل ونستنتج ذلك من خلال قوله "وياما دعاه بدووا وانحرفوا عن الدين"⁴. فهذه الرسالة الموجّهة إلى فئة من الأعوان تكشف الصّراع المحتدم حول الامتيازات التي يمنحها هذا الحقل إلى المنتسبين إليه. لذلك يركّز العون على كلمة "الثبات" في الدين. والانحراف عن الدين الذي يكرّره في كلّ مناسبة هو في الحقيقة انحراف عن قوانين اللّعب-بعبارة بورديو- التي سنّها لتنظيم الحقل الديني. فالعون الأول "أحمد بدر الدين حسون" و العون الثاني "محمد سعيد رمضان البوطي" تمّ إقصاءهما من الحقل الديني لتمردهما على بعض قوانين اللّعب (يرجع ذلك إلى وقوفهما ضدّ الاحتجاجات في الجمهوريّة السوريّة وموقفهما من تنظيم الإخوان

يتشكل الحقل إذن حسب بورديو من جملة علاقات موضوعية قائمة بين مجموعة من المواقع يتحدد وجودها بمحتليها. والمحتلون لهذه المواقع يمكن ان يكونوا فاعلين أو مؤسسات، كما يرتبط مفهوم الحقل بمفهوم الرأسمال ارتباطا وثيقا خصوصا في أبعاده الثقافية والاقتصادية. فهو يمثل سلطة رمزية لها قدرة كبيرة على السيطرة على فضاء اللّعب، في الحقل المعني، والذي من الطبيعي أن يشهد بدوره، حركية داخلية مهمة واشتغالا ديناميا محكما سيؤدي فيما بعد إلى نشوء نزاعات ستتراكم وتختمر لتنفجر في المرحلة الموالية في شكل صراعات بين هذه القوى الفاعلة داخل حقل اللّعب (سواء كان لعبا طبيعيا أو سياسيا، أو اجتماعيا أو فكريا أو دينيا أو ثقافيا أو حضاريا... إلخ) وذلك للدّفاع عن المكتسبات السابقة للقوى المتصارعة والاحتفاظ بها قدر الإمكان، أو محاولتها صياغة خريطة جديدة، تتناسب ووضع اللّعب الجديد والصراع.

1- وجددي غنيم، خطبة الغزو الفكري، الدقيقة الأولى وأربعون ثانية.
2- ستيفان شوفالبيه & كريستيان شوفيري، معجم بيبور بورديو، ترجمة الزهرة إبراهيم، الطبعة الأولى، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، 2013 ص148.

3- وجددي غنيم، خطبة الغزو الفكري، مصدر سابق، من الدقيقة العاشرة وخمس وعشرين ثانية إلى الدقيقة الحادية عشرة وخمس ثوان.

4 المصدر نفسه، الدقيقة الخامسة والعشرون وخمس وثلاثون ثانية.

المسلمين)، رغم حيازتهما مجموعة رساميل تخوّل لهما البقاء في الحقل وتضمن لهما موقعا مركزيًا فيه، ويتجلى ذلك من خلال قوله "في سوريا فيه واحد إسمه حسّون والثاني إسمه البوطي كنّا بنعزّهم ونسمع كلامهم"¹. وعملية إقصاء "هذين المُهرطقين" دفاع عن الخطاب الأرتذوكسي لهذا الحقل وسعي إلى الحصول على المزيد من الامتيازات.

نخلص إذن إلى أنّ العون الاجتماعي يحتلّ موقعا مركزيًا داخل الحقل الذي نحن منه بسبيل من خلال وضع قوانين تنظّمه وتحديد مقاييس تميّزه عن بقية الحقول ودخوله في صراع داخل نفس الحقل عندما لم يلتزم الأعوان المنافسون بكل ما تمليه عليهم قوانين اللّعب. هذا الصّراع من شأنه أن يقسم هذا الحقل إلى حقول متصارعة كل منها يدّعي أنه يُمثّل الحقل الأصليّ. ولكن كيف يتعامل هذا العون مع ممثلي الحقول الأخرى وكيف يخوض معاركه معهم؟

4-2-2- الصّراع الخارجيّ للحقل:

هو صراع ينخرط فيه المنتمون إلى "الحقل الإسلاميّ" على وجه التّحديد مع حقول أخرى يعتبرونها "غير إسلاميّة" ويمكننا أن نستشفّ ذلك من خلال الأقوال التّالية: "الإسلام دين الله، نحن على دين الله"² و "ومن يبتغي غير الإسلام دينا ستين داهية لن يقبل منه"³، وهي رسائل واضحة تكشف الصّراع مع بقية الحقول "الضّالة".

أول هذه الحقول هو الأنظمة السياسيّة التي تمّ إسقاطها. فقد صنّف النظام التّونسيّ والنّظام المصريّ خارج الحقل الإسلاميّ واصفا إياهما بـ "الطّواغيت"، مستغلا موجة الهوس الدينيّ التي انتشرت بعد الأحداث التي شهدتها البلدان العربيّة مباشرة من أجل تعبئة شعبيّة للحقل، مخرجا رموزهما في صور كاريكاتوريّة "الله يخرب بيته مطرح ما هو قاعد الله ينتقم منه، اللّي جاي على سيرر، اللي نايم على ظهره"⁴. أمّا ثاني هذه الحقول فهو حقل العلمانيّين العرب. ويعتبر هذا الحقل أشرس من الحقل الأوّل وأكثر خطرا عليه لأنّ الحقل الأوّل صار في حكم الماضي ولم يعد له حول ولا قوّة بينما هذا الحقل له وجود فعليّ وينافسه على جميع الأصعدة. ويتجلى هذا الصّراع في الخطاب المدرّوس من خلال توجيهه وابل من الشّتائم إلى المنتمين إلى هذا الحقل. تتراوح هذه الشّتائم بين "الضّلاليّة المجرمين" و "الحاقدين على الإسلام" و "الكارهين للإسلام" و "الكلاب المسعورة"⁵ وغيرها من الشّتائم التي تدور في فلك عداوة الإسلام والتّأمر عليه معتبرا إياهم خطرا عليه. ويعزى ذلك إلى اعتقاده أنّهم من "المفترض" أن يكونوا أعوانا في حقله. والتّركيز على شتيمة العداة للدين يقابله تشديد على الدّعوة إلى الحقل الإسلاميّ من خلال إخراجهم في شكل نعمة من

1- المصدر نفسه، الدّقيقة الخامسة والعشرون وثمان وخمسون ثانية.

2- المصدر نفسه، الدّقيقة السّابعة وثلاثون ثانية.

3- المصدر نفسه، الدّقيقة السّابعة وست وثلاثون ثانية.

4- المصدر نفسه، من الدّقيقة الخامسة عشرة وأربع وعشرين ثانية إلى الدّقيقة الخامسة عشرة وإحدى وثلاثين ثانية.

5- المصدر نفسه، من الدّقيقة الثامنة واثنين وعشرين ثانية إلى الدّقيقة الثامنة وثمان وعشرين ثانية.

النعم التي من بها الله على عباده "حس بالخير إلى أنت فيه"¹ ، "أنت في على دين الله". وهو يُذكَر العون (المتلقّي في الاصطلاح اللساني) كلما سنحت الفرصة بأن الانتماء وحده لا يكفي بل يجب تدعيم هذا الانتماء بالاعتزاز و"بقوة" وبأنّ الانتماء إلى هذا الحقل ليس فضلا من المنتمين إليه، بل هو تكريم إلهي وينبغي أن يُشكر الله عليه مستشهدا في هذا الإطار بالآية القرآنية التالية "يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ".

ولما كان الانتماء إلى الحقل الاسلامي منة إلهية فإنّ مناصبة العداء لهذا الدين (الذي هو في الحقيقة صراع حقل علماني مع حقل إسلامي حول طريقة تسيير أمور الدنيا) هو عداء للذات الإلهية وينبغي نصرته الله على أعدائه.

وأما ثالث هذه الحقول فهو الآخر الأوروبي وهو الحقل الذي يعتبره العون الاجتماعي (المتكلم في الاصطلاح اللساني) منافسا قويا وشرسا يهدّد وجود حقله بوقوفه وراء الحقل الذي ينافس على مجال حكمه (الحقل العلماني). فيذكَر في هذا الإطار بكلّ الحروب القديمة والحديثة والمعاصرة التي خاضها هذا الآخر ضدّ حقله. ويقوم بإخراجه بطريقة ساخرة وكوميديّة في صورة الضّعيف عسكريا (التذكير بعملية أسر الملك لويس التاسع في دار لقمان في مصر) والممتجئ إلى الحيلة والخبث (ضرب مثال الصّاروخ الموجّه للجسد والصّاروخ الموجّه للمخ). مستخدما عبارة "التفّ في العقول" (البصق في العقول) للإحالة على الإنتاج الفكري لهذا الحقل.

لقد كان كلّ حديث العون عن هذا الحقل مصحوبا بنبرة من السّخرية والإضحاك. والضّحك عادة ما ينشأ نتيجة شعور ما بالتفوق المادّي أو العقليّ يشعر به الضّاحك إزاء الآخرين الأقلّ منه². وهذا يترجم ضربا من الغرور والاعتداد بالذات وثقافتها. فالحقل المنافس يحمل ثقافة مسيحيّة. ومسيحيّة هذه الثقافة وحدها كافية للحطّ من قيمتها والحكم على دونيّتها. وبالتالي لا يستحق هذا الحقل الكلام عليه بجديّة.

نخلص إذن من خلال ما سبق قوله إلى أنّ العون الاجتماعي يحتلّ موقعا مركزيا داخل الحقل الدينيّ ويبدو ذلك جليا من خلال سنّه لجملة القوانين التي تنظّمه وتحديد المقاييس التي تنظّم عملية اللّعب بين مختلف الأعوان القدماء والجدد. ويمكننا أن نستنتج ذلك أيضا من خلال دخوله في صراع داخل الحقل عندما تمّ اختراق القوانين المنظّمة له وصراع مع ممثليّ الحقول المنافسة عن طريق السّخرية منهم وتصويرهم في شكل كاريكاتوريّ.

1- المصدر نفسه، الدّقيقة الثامنة وثلاث ثوان.

2- عبد الحميد شاكر، الفكاهة والضّحك، مرجع المذكور، ص119.

5- الخاتمة:

يكشف أسلوب الأمر بمختلف أشكاله العلاقة العموديّة التي تجمع طرفي العمليّة التواصليّة والوجهة التي كان الطّرف الأوّل يُولمها قبلته من أجل الوصول الى مبتغاه. فقد كان يعمل على ملء مجموعة من الفراغات بما يناسب توجّهاته ويخدم الحقل الاجتماعيّ الذي ينتهي إليه فتكون اللّغة بذلك وسيلة من وسائل كشف تمثّلنا للكون وبنية سطحيّة للحالة العرفانيّة التي نعيشها .

ورغم ما أبداه المتلقّي من سلبية في الخطب المدروسة، فإنّه برهن في الكثير من المناسبات على أنّه لم يكن مجرد وعاء يقبل كل ما يرمى فيه وأنّما تصرّف في الحقل وطوّع مقومّاته خارج الفضاء المغلق وفق ما يتماشى مع شخصيّته وتجاربه اليوميّة. وأكّد هذه الفاعليّة في الكثير من المحطّات التاريخيّة التي شهدتها منطقتي الشّرق الاوسط وشمال إفريقيا . فكانت النتيجة سقوط هذا الحقل بشكل مدوّ وفقدانه أيّ قدرة على التّأثير. وبذلك يفتح هذا المتلقّي يفتح باب الدّراسات البلاغية على مصراعيه لصنف جديد من الدّراسات: إنّه بلاغة الجمهور.

قائمة المصادر:

العربية:

- 1- بورديو (بيير) وباسرون (جان كلود): إعادة الانتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة ماهر تريمش، الطبعة الاولى، المنظمة العربية للترجمة، نوفمبر، 2007.
- 2- بورديو (بيير): مسائل في علم الاجتماع، ترجمة هناء صبيحي، مراجعة فريد الزاهي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2001.
- 3- بورديو (بيير): العنف الرمزي بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ترجمة نظير جاهل، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، 1994.
- 4- الرّازي (فخر الدين): المحصول في علم أصول الفقه، ج2، دراسة وتحقيق طه جابر الفيّاض العلواني، مؤسسة الرسالة، دت.
- 5- الرمخشري (جار الله) تفسير الكشاف، الطبعة الثالثة، دار المعرفة بيروت لبنان، 2009.
- 6- السّكاكي (أبو يعقوب): مفتاح العلوم، الطبعة الثانية، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1987.
- 7- الشّهري (عبد الهادي): استراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداوليّة، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتّحدة، مارس، 2004.
- 8- شوفالييه (ستيفان) وشوفيري (كريستيان): معجم بيير بورديو، ترجمة الزّهرة إبراهيم، الطبعة الأولى، النايا للدراسات والنّشر والتّوزيع، 2013.
- 9- العاني (رافع الرفاعي): الأمر عند الأصوليين، الطبعة الأولى، دار المحبّة دمشق، دار آية بيروت، 2007.
- 10- عبد الحميد (شاكر): الفكاهة والضّحك رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- 11- عتيق (عبد العزيز): علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة: الأولى 1430 هـ / 2009 م.
- 12- كاترين كبريات (أوركيوني): مدخل علاقة بينشخصيّة، معجم تحليل الخطاب. إشراف دومنيك مانغنو وباتريك شارودو، ترجمة حمادي صمود وعبد القادر المهيري، المركز الوطني للترجمة دار سيناترا، تونس، 2008.
- 13- كاترين كبريات (أوركيوني): مقالة علاقة بينشخصيّة، معجم تحليل الخطاب إشراف دومنيك مانغنو وباتريك شارودو، ترجمة حمادي صمود وعبد القادر المهيري، المركز الوطني للترجمة دار سيناترا، تونس، 2008.
- 14- كاترين كبريات (أوركيوني): مقال وجه، معجم تحليل الخطاب، إشراف دومنيك مانغنو وباتريك شارودو، ترجمة حمادي صمود وعبد القادر المهيري، المركز الوطني للترجمة دار سيناترا، تونس، 2008.

15- موشلار (جاك) وروبول (آن): مدخل نظريّة الأعمال اللّغويّة، ترجمة شكري المبخوت ضمن القاموس الموسوعي للتّداوليّة، ترجمة مجموعة من الباحثين، إشراف عزالدين المجدوب، سلسلة اللّسان، المركز الوطني للترجمة تونس، دار سيناترا، 2010.

الاجنبية:

1. Bourdieu P, Loïc Wacquant, Réponses. Pour une anthropologie réflexive, SEUIL, janvier 1992.
2. Bousfield (Derek): *Impoliteness in interaction*, Jhon Benjamins Publishing Company, Amsterdam, Philadelphia, 2008.
3. Brown (Penelope) & Levinson (Stephen. C): *Politeness Some universals in language usage*, Studies in interactional Sociolinguistics 4, Cambridge university press, 1987.
4. Grice H. Paul. *Logique et conversation*. In: *Communications*, 30, 1979. La conversation. pp. 57-72. DOI: <https://doi.org/10.3406/comm.1979.1446>, www.persee.fr/doc/comm_0588-8018_1979_num_30_1_1446.
5. Kerbrat-Orecchioni (Catherine) : *Les actes de langage dans le discours : théorie et fonctionnement*, édition Nathan, 2001.
6. Kerbrat-Orecchioni Catherine) : *Les interactions verbales Tome2*, Linguistique, Armand Colin, 1992, deuxième partie : La politesse dans les interactions verbales.
7. Leech (Geoffrey): *Principles of pragmatics*, Longman Linguistics Library, 1983.
8. Penelope Brown & Stephen Levinson, *Politeness Some universals in language usage*, Studies in interactional Sociolinguistics 4, Cambridge university press, 1987.

مراجع الكترونية:

- 16- وجدي غنيم، 2011، يلاً عايزين نفرح، محاضرة واردة على اليوتيوب: <https://www.youtube.com/watch?v=xaOhLzqubqk>
- 17- وجدي غنيم، 2012، خطبة الغزو الفكري، قبة المنزه، تونس، 2012، محاضرة واردة على اليوتيوب: <https://www.youtube.com/watch?v=j0wJkUxhJMk>

